تمهيد

رسالة الإسلام وعُمُومهَا وَالغَايَة مِنهَا : أرسل الله محمدًا ﷺ بالحنيفية السّمحة ، والشّريعة الجامعة ، التي تكفل للناس الحياة الكريمة المهذّبة ، والتي تصل بهم إلى أعلى درجات الرقيّ والكمال . وفي مدى ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا ، قضاها رسول الله ﷺ ، في دعوة الناس إلى الله ، تمّ له ما أراد من تبليغ الدين وجمع الناس عليه .

عموم الرّسالة : ولم تكن رسالة الإسلام رسالةً موضعيةً محدّدةً ، يختص بها جيلٌ من الناس دون جيلٍ ، أو قبيلٌ دون قبيلٍ ، شأن الرسالات التي تقدّمتها ، بل كانت رسالةً عامةً للناس جميعًا ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يختص بها مصرٌ دون مصرٍ ، ولا عصرٌ دون عصرٍ ، قال الله تعالى : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان : ١] وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ : ٢٨] وقال تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وفي الحديث الصحيح : «كان كلّ نبيٍّ يُبعث في قومهِ خاصّةً ، وبُعثت إلى كلّ أحمر وأسود» . ومما يؤكد عموم هذه الرسالة وشمولها ما يأتي :

١ ـ أنه ليس فيها ما يصعب على الناس اعتقاده ، أو يشقّ عليهم العمل به ، قال الله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] وقال تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ، [البقرة : ١٨٥] وقال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] . وفي البخاري من حديث أبي سعيد المقبُريّ أن رسول الله ﷺ قال : «إن هذا الدين يُسرٌ ، ولن يشادّ الدّين أحدٌ إلا غلبه» . وفي مسلم مرفوعًا : «أحبّ الدّين إلى الله الحنيفية السّمحة» .

٢ ـ أنّ ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان ، كالعقائد والعبادات ، جاء مفصّلًا تفصيلًا كاملًا ، وموضّحًا بالنّصوص المحيطة به ، فليس لأحد أن يزيد فيه أو ينقص منه ، وما يختلف باختلاف الزّمان والمكان ، كالمصالح المدنيّة ، والأمور السياسيّة والحربيّة ، جاء مجملًا ، ليتّفق مع مصالح الناس في جميع العصور ، ويهتدي به أولو الأمر في إقامة الحقّ والعدل .

٣ ـ أنّ كلّ ما فيها من تعاليم إنما يقصد به حفظ الدّين ، وحفظ النّفس ، وحفظ العقل ، وحفظ النّسل ، وحفظ المال ، وبدهيٌّ أنّ هذا يناسب الفِطَر ويساير العقول ، ويجاري التّطوّر ويصلح لكلّ زمانٍ ومكان . قال الله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ ، [الأعراف : ٣٢ - ٣٣] وقال جل شأنه : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾[الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] .

الغاية منها : والغاية التي ترمي إليها رسالة الإسلام ، تزكية الأنفس وتطهيرها عن طريق المعرفة بالله وعبادته ، وتدعيم الروابط الإنسانية وإقامتها على أساس من الحب والرحمة والإخاء والمساواة والعدل ، وبذلك يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة ، قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] . وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . وفى الحديث : « أنا رحمةٌ مُهداةٌ » .

التشريع الإسلامي أو : الفقه

والتشريع الإسلاميّ ناحيةٌ من النواحي الهامة التي انتظمتها رسالة الإسلام ، والتي تمثل الناحية العلمية من هذه الرسالة . ولم يكن التشريع الدينيّ المحض - كأحكام العبادات - يصدر إلا عن وحي الله لنبيه ﷺ ، من كتابٍ أو سنةٍ ، أو بما يقرّه عليه من اجتهادٍ ، وكانت مهمّة الرسول لا تتجاوز دائرة التبليغ والتبيين ، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

أما التشريع الذي يتّصل بالأمور الدنيويّة ، من قضائيةٍ وسياسيةٍ وحربية ، فقد أمر الرسول ﷺ بالمشاورة فيها ، وكان يرى الرأيَ فيرجع عنه لرأي أصحابه ، كما وقع في غزوة بدر وأُحد ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يرجعون إليه ﷺ ، يسألونه عمّا لم يعلموه ، ويستفسرونه فيما خفي عليهم من معاني النصوص ، ويعرضون عليه ما فهموه منها ، فكان أحيانًا يقرُّهم على فهمهم ، وأحيانًا يبين لهم موضع الخطأ فيما ذهبوا إليه .

والقواعد العامة التي وضعها الإسلام ، ليسير على ضوئها المسلمون هي :

١ - النهيّ عن البحث فيما لم يقع من الحوادث حتى يقع : قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة : ١٠١] . وفي الحديث « أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات» ، وهي المسائل التي لم تقع .

٢ - تجنُّب كثرة السؤال وعُضَلِ المسائل : ففي الحديث : «إنّ الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» . وعنه ﷺ : «إنّ الله فرض فرائض فلا تضيّعوها ، وحَدَّ حدودًا فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيانٍ فلا تبحثوا عنها» . وعنه ﷺ أيضًا : «أعظم الناس جُرْمًا ؛ من سأل عن شيءٍ لم يُحرَّمْ فَحُرِّمَ من أجل مسألته» .

٣ ـ البعد عن الاختلاف والتفرّق في الدّين: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الروم: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]

٤ ـ ردّ المسائل المتنازع فيها إلى الكتاب والسنّة: عملًا بقول الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وذلك لأن الدّين قد فصّله الكتاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وبيّنته السنّة العمليّة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وبذلك تم أمره، ووضحت معالمه، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وما دامت المسائل الدينية قد بُيّنت على هذا النحو، وما دام الأصل الذي يُرجع إليه عند التحاكم معلومًا، فلا معنى للاختلاف ولا مجال له، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. على ضوء هذه القواعد، سار الصّحابة ومن بعدهم من القرون المشهود لها بالخير، ولم يقع بينهم اختلافٌ، إلا في مسائلَ معدودةٍ، كان مرجعه التّفاوت في فهم النّصوص، وأنّ بعضهم كان يعلم منها ما يخفى على البعض الآخر.

فلما جاء أئمّة المذاهب الأربعة تبعوا سنن مَنْ قبلهم، إلا أن بعضهم كان أقرب إلى السنة، كالحجازيين الذين كثر فيهم حملة السُّنة ورواة الآثار، والبعض الآخر كان أقرب إلى الرأي كالعراقيين الذين قل فيهم حفظة الحديث، لتنائي ديارهم عن منزل الوحي. بذل هؤلاء الأئمّة أقصى ما في وسعهم لتعريف الناس بهذا الدين وهدايتهم به، وكانوا ينهون عن تقليدهم ويقولون: لا يجوز لأحدٍ أن يقول قولنا من غير أن يعرف دليلنا، وصرّحوا أن مذهبهم هو الحديث الصّحيح؛ لأنهم لم يكونوا يقصدون أن يُقلَّدوا كالمعصوم ﷺ، بل كان كلّ قصدِهم أن يُعينوا الناس على فهم أحكام الله. إلا أن الناس بعدهم قد فترت هممهم، وضعفت عزائمهم، وتحرّكت فيهم غريزة المحاكاة والتّقليد، فاكتفى كلّ جماعةٍ منهم بمذهبٍ معيّنٍ ينظر فيه، ويعوّل عليه، ويتعصّب له، ويبذل كلّ ما أوتيَ من قوةٍ في نُصرته، وينزل قولَ إمامِهِ منزلة قول الشّارع، ولا يستجيز لنفسه أن يفتي في مسألة بما يخالف ما استنبطه إمامه، وقد بلغ الغلوّ في الثّقة بهؤلاء الأئمة حتى قال الكرخيّ: كلّ آية أو حديثٍ يُخالف ما عليه أصحابُنا فهو مؤوّلٌ أو منسوخٌ.

وبالتقليد والتعصّب للمذاهب فقدت الأمة الهداية بالكتاب والسنّة، وحدث القول بانسداد باب الاجتهاد، وصارت الشريعة هي أقوال الفقهاء، وأقوال الفقهاء هي الشريعة، واعتبر كلّ ما يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعًا لا يُوثق بأقواله، ولا يُعتدّ بفتاويه. وكان مما ساعد على انتشار هذه الروح الرجعية، ما قام به الحكّام والأغنياء من إنشاء المدارس، وقصر التّدريس فيها على مذهبٍ أو مذاهب معينةٍ، فكان ذلك من أسباب الإقبال على تلك المذاهب، والانصراف عن الاجتهاد؛ محافظة على الأرزاق التي رُتّبت لهم! سأل أبو زرعة شيخه البلقيني قائلًا: ما تقصير الشيخ تقي الدين السبكيّ عن الاجتهاد وقد استكمل آلته؟ فسكت البلقيني، فقال أبو زرعة: فما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قدّرت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وأنّ من خرج عن ذلك لم ينلْه شيءٌ من ذلك، وحُرِمَ ولاية القضاء، وامتنع الناس عن إفتائه، ونسبت إليه البدعة. فابتسم البلقيني ووافقه على ذلك. وبالعكوف على التقليد، وفقد الهداية بالكتاب والسنّة، والقول بانسداد باب الاجتهاد وقعت الأمة في شرٍّ وبلاءٍ، ودخلت في جُحْرِ الضّبّ الذي حذّرها رسول الله ﷺ منه.

كان من آثار ذلك أن اختلفت الأمة شيعًا وأحزابًا، حتى إنهم اختلفوا في حكم تزوّج الحنفية بالشافعيّ، فقال بعضهم: لا يصحّ، لأنها تشكُّ[1] في إيمانها، وقال آخرون: يصحّ قياسًا على الذمّية، كما كان من آثار ذلك انتشار البدع، واختفاء معالم السنن، وخمود الحركة العقلية، ووقف النشاط الفكريّ، وضياع الاستقلال العلميّ، الأمر الذي أدى إلى ضعف شخصية الأمة، وأفقدها الحياة المنتجة، وقعد بها عن السير والنهوض، ووجد الدّخلاء بذلك ثغراتٍ ينفذون منها إلى صميم الإسلام. مرّت السّنون، وانقضت القرون، وفي كلّ حينٍ يبعث الله لهذه الأمة من يجدّد لها دينها، ويوقظها من سُباتها، ويوجّهها الوجهة الصّالحة، إلا أنها لا تكاد تستيقظ حتى تعود إلى ما كانت عليه، أو أشدّ مما كانت.

وأخيرًا انتهى الأمر بالتشريع الإسلاميّ، الذي نظم الله به حياة الناس جميعًا، وجعله سلاحًا لمعاشهم ومعادِهم، إلى دركةٍ لم يسبق لها مثيلٌ؛ ونزل إلى هُوّةٍ سحيقةٍ، وأصبح الاشتغال به مفسدةً للعقل والقلب، ومضيعةً للزمن، لا يفيد في دين الله ولا ينظّم من حياة الناس. وهذا مثالٌ لما كتبه بعض الفقهاء المتأخّرين: عرّف ابن عرفة الإجارة فقال: بيع منفعة ما أمكن نقله، غير سفينةٍ ولا حيوانٍ، لا يعقل بعوضٍ غير ناشئٍ عنها، بعضه يتبعّض بتبعيضها. فاعترض عليه أحد تلاميذه، بأنّ كلمة بعض تنافي الاختصار، وأنه لا ضرورة لذكرها، فتوقف الشيخ يومين، ثم أجاب بما لا طائل تحته.

وقف التشريع عند هذا الحدّ، ووقف العلماء لا يستظهرون غير المتون، ولا يعرفون غير الحواشي وما فيها من إيراداتٍ واعتراضاتٍ وألغازٍ، وما كُتب عليها من تقريراتٍ، حتى وثبت أوروبا على الشرق تصفعه بيدها، وتركله برجلها، فكان أن تيقّظ على هذه الضربات، وتلفت ذات اليمين وذات الشمال، فإذا هو متخلّفٌ عن ركْب الحياة الزاحف، وقاعدٌ بينما القافلة تسير، وإذا هو أمام عالمٍ جديدٍ، كلّه الحياة والقوّة

(١) لأن الشافعية يجوزون أن يقول المسلم: أنا مؤمن إن شاء الله.

والإنتاج، فَراعه ما رأى، وبهَره ما شاهد، فصاح الذين تنكروا لتاريخهم وعقُّوا آباءهم، ونسوا دينهم وتقاليدهم: أن ها هي ذي أوروبا يا معشر الشرقيين، فاسلكوا سبيلها، وقلّدوها في خيرها وشرها، وإيمانها وكفرها، وحلوها ومرها، ووقف الجامدون موقفًا سلبيًّا يكثرون من الحوقلة والترجيع، وانطووا على أنفسهم، ولزموا بيوتهم، فكان هذا برهانًا آخر على أن شريعة الإسلام لدى المغرورين لا تُجاري التطور، ولا تتمشى مع الزمن، ثم كانت النتيجة الحتميّة، أن كان التشريع الأجنبيّ الدخيل هو الذي يهيمن على الحياة الشرقية، مع منافاته لدينها وعاداتها وتقاليدها، وإن كانت الأوضاع الأوروبية هي التي تغزو البيوت والشوارع والمنتديات والمدارس والمعاهد، وأخذت موجتها تقوى وتتغلب على كلّ ناحية من النّواحي حتى كاد الشرق ينسى دينه وتقاليده ويقطع الصلة بين حاضره وماضيه، إلا أن الأرض لا تخلو من قائم لله بحجّةٍ، فهبَّ دعاة الإصلاح يهيبون بهؤلاء المخدوعين بالغربيين، أن: خذوا حذْركم، وكفُّوا عن دعايتكم، فإن ما عليه الغربيون من فساد الأخلاق لا بدّ وأن ينتهي بهم إلى العاقبة السّوآى، وأنهم ما لم يصلحوا فطرهم بالإيمان الصّحيح، ويعدّلوا طباعهم بالمثل العليا من الأخلاق، فسوف تنقلب علومهم أداة تخريب وتدمير، وتتحول مدنيّتهم إلى نار تلتهمهم وتقضي عليهم القضاء الأخير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤]. ويصيحون بهؤلاء الجامدين: دونكم النّبع الصّافي، والهدي الكريم، لنبع الكتاب وهدي السنّة، خذوا منهما دينكم، وبشروا بهما غيركم، فعند ذلك تهتدي بكم هذه الدنيا الحائرة، وتسعد بكم هذه الإنسانية المعذبة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وكان من فضل الله أن استجاب لهذه الدعوة رجالٌ بررةٌ، وتلقّتها قلوب مخلصةٌ، واعتنقها شبابٌ وهبها أعزّ ما يملك من الأموال والأنفس.

فهل أذن الله لنوره أن يشرق على الأرض من جديد؟ وهل أراد للإنسان أن يحيا حياة طيبة، يسودها الإيمان والحب والإحسان والعدل؟ هذا ما تشهد به الآيات: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ [فصلت: ٥٣].

